إشكاليات النقد الثقافي عند محمد عبد المطلب

إعداد

د. محمد إبراهيم عبد العال

قسم اللغة العربية وآدابها

(كلية الآداب – جامعة المنوفية)

إصدار يناير لسنة ٢٠٢٥م

شعبة النشر والخدمات المعلوماتية

إشكاليات النقد الثقافي عند محمد عبد المطلب

ملخص:

يتناول هذا البحث عددا من الإشكاليات النقدية والمعرفية المتعلقة بالتحليل الثقافي للأدب، وبخاصة الإشكاليات المتعلقة مفهوم «القراءة الثقافية» الذي طرحه الدكتور محمد عبد المطلب بديلا عن مصطلح «النقد الثقافي» الذي طرحه الناقد السعودي الدكتور عبد الله الغذامي، ويرتبط هذا الطرح بعدد من الإشكاليات المعرفية والنقدية التي تمثل حجر زاوية في مجال النقد الثقافي والتحليل الثقافي للأدب؛ منها ما يتعلق بطرح الغذامي للنقد الثقافي الثقافي بوصفه بديلا عن النقد الأدبي، ومنها ما يتعلق بإشكالية الاصطلاح، هل هو نقد ثقافي أم قراءة ثقافية؟ ومسوغات تفضيل الدكتور محمد عبد المطلب لمصطلح «القراءة الثقافية»، ومن هذه الإشكاليات أيضا ما يرتبط بمنهجيات التحليل الثقافي للنصوص الأدبية وعلاقته بمنهجية الدراسات البينية في العلوم الإنسانية، ودور مفهوم «الموسوعة» الثقافية في ضبط منهجية التحليل الثقافي للنصوص الأدبية، ومنها كذلك ما يتعلق بمجموعة المفاهيم المركزية في تحليل الأدب مثل: ثنائية اللغة والثقافة، ثنائية الجمالي والثقافي، وغاية التحليل الثقافي للأدب، كذلك ما يتعلق بمصطلحات: النقد – القراءة – التحليل - التأويل.

كلمات مفتاحية:

النقد الثقافي؛ القراءة الجمالية؛ القراءة الثقافية؛ التحليل الثقافي للأدب؛ محمد عبد المطلب.

Problems of cultural criticism as envisaged by Muhammad Abd al-Muttalib

Abstract:

This research addresses a number of critical and epistemological issues related to the cultural analysis of literature, particularly the concept of "cultural reading," proposed by Dr. Muhammad Abdul Muttalib as an alternative to the term "cultural criticism," introduced by the Saudi critic Dr. Abdullah Al-Ghadami. This approach is linked to a number of epistemological and critical issues that represent a cornerstone in the field of cultural criticism and cultural analysis of literature. These issues include Al-Ghadami's proposal for cultural criticism as an alternative to literary criticism, and the problematic terminology: Is it cultural criticism or cultural reading? And the justifications for Dr. Muhammad Abdul Muttalib's preference for the term "cultural reading" are also discussed. These issues also relate to the methodologies of cultural analysis of literary texts and their relationship to the methodology of interdisciplinary studies in the humanities. It also addresses the role of the concept of the cultural encyclopedia in defining the methodology of cultural analysis of literary texts and a set of central concepts in literary analysis, such as the duality of language and culture, the duality of aesthetics and culture, as well as purpose of cultural analysis of literature. They also address the terms criticism, reading, analysis, and interpretation.

Keywords: Cultural criticism; aesthetic reading; cultural reading; cultural analysis of literature; Muhammad Abdul Muttalib.

إشكاليات النقد الثقافي عند محمد عبد المطلب

مقدمة:

تمثل المسيرة المعرفية للأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب نموذجًا مهمًا للانتقالات المتماسكة بين التراث والحداثة وما بعدها، فمن البدايات بالبلاغة العربية وقراءتها وعلاقتها بالأسلوبية والقراءة التحليلية للنصوص الشعرية التراثية، ومرورا بمناهج النقد الأدبي الحديث وقضايا الحداثة وتطبيقاتها في النصوص الأدبية الحديثة، ووصولًا إلى النقد الثقافي والقراءة الثقافية وتطبيقاتها على النصوص الشعرية والسردية، فإن هذه المسيرة وقراءتها بعمق تؤشران على وعي معرفي مغاير في خريطة الثقافة العربية، إذ لم يتقوقع هذا الوعي في أسر التراث، ولم يقدس الوافد الغربي، وإنما نظر إلى كل منهما في ضوء الآخر، وعمل على إفادة كل منهما من الآخر بهدف تأسيس تصور معرفي شامل وتكاملي حول النص الأدبي وما يدور في فلكه من علوم. وعلى الرغم من المرجعية المعرفية التراثية التي حظي بها د. محمد عبد المطلب، وعلى الرغم من إطلاعه الواسع والعميق على المنجز النقدي الغربي، فإن انحيازه لم يكن لأي منهما دون الآخر، وإنما كان انحيازه المعرفي للحظته الراهنة؛ وفي ظل هذا التنوع المعرفي والمرجعي ظل إيمان د. محمد عبد المطلب قويا بإمكان أن يكون للنقد العربي الحديث مداخلته الخاصة، التي تنتمي إلى ثقافته، مداخلة تتنصل من إرثها المعرفي، ولا تجافي الغربي على حد سواء، وإنما تسائل كلاً منهما.

تعد مرحلة النقد الثقافي عند د. محمد عبد المطلب مرحلة مميزة جدا؛ وذلك لأنها جاءت مع اكتمال مشروع الأستاذ في قراءاته للتراث والحداثة على السواء، فحظي طرحه برؤية شمولية للنص الأدبي في مظلة من الثقافتين، وفي مظلة من الحقلين المعرفيين (البلاغة) و(النقد الأدبي). في هذه الدراسة سنناقش مفهوم «القراءة الثقافية» للنص الأدبي وإشكالياته عند الأستاذ الدكتور محمد عبد المطلب، بهدف إخضاع هذا المفهوم لمبدأي الجدل والتراكم المعرفيين، وذلك للكشف عن البعد المعرفي المؤسس لطرحه حول ممارسات النقد الثقافي.

ولا شك أن تصور د. محمد عبد المطلب للتحليل الثقافي للنص الأدبي استند بدءًا على تصور خاص للنص الأدبي ومنطلقات تحليله، وربما يكون هذا المفهوم الخاص هو ما دفعه إلى تفضيل مصطلح «القراءة الثقافية» على مصطلح «النقد الثقافي»، ولعل هذا المفهوم أيضا هو العنصر المؤسس لتصوراته حول علاقة النص الأدبي بالثقافة، ومن ثم لتحليلاته -أو قل قراءاته- الثقافية للنص الأدبي. ولا جدال في كون الخلفية المعرفية التراثية قد لعبت دورا مهما وحاسمًا في هذا التصور، بالإضافة إلى المعرفة المستفيضة بمناهج النقد الأدبي الحديث.

* * * * *

«نقد» ثقافي أم «قراءة» ثقافية؟

ينطلق أ.د. محمد عبد المطلب في تأسيسه لمداخلة الثقافي على النص الأدبي من هذا التساؤل: نقد ثقافي أم قراءة ثقافية؟ والحقيقة أن د. عبد المطلب يبدي بوضوح لا لبس فيه تفضيله لمصطلح «القراءة» على مصطلح «النقد»، باعتبار أن «النقد في صلته بالأدب يعتمد الكشف على طبيعته الأدبية، متوسلا بالشرح والتحليل بهدف الوصول إلى إصدار الحكم بالجودة وسواها»[1]. ولا شك أن هذا التصور للنقد يتأسس على رؤية تراثية لمفهوم «النقد»، التي ترى أن غاية النقد تتمحور حول «إصدار الحكم بالجودة وسواها»؛ وهي غاية يؤكد عليها د. عبد المطلب. وذلك على الرغم من اتفاق د. عبد المطلب مع التصور الحديث لإجراءات الوصول إلى هذه الغاية (التوسل بالشرح والتحليل – الكشف عن طبيعة النص الأدبية).

وإذا ما وسّعنا دائرة الفهم لمصطلحي «النقد» و«القراءة» في هذا الإطار، فلا شك أن تصور د. عبد المطلب لمصطلح «القراءة» يكون أكثر صحة ودلالة على النشاط المعرفي الموسوم بالثقافي في مقاربة النصوص الأدبية؛ ذلك أن الوصف « الثقافي» اللاحق بمفردة «النقد» لا يعني وجود إجراءات تحليلية دقيقة لهذه الممارسات التي تتخذه وسما لها، فالنقد الثقافي ليس منهجا متبلورا بذاته كالنقد البنيوي أو السيميولوجي، وإنما هو مصطلح جامع دال على مسيرة طويلة من الأفكار المتلاقحة والمتلاحقة حول البعد الثقافي الكامن في الظواهر الإنسانية المدروسة، ولا يرتبط هذا المصطلح بنظرية أدبية أو نقدية محددة بقدر ارتباطه بركام من الأفكار حول كل من الثقافة والظواهر الإنسانية عامة، وليس النص الأدبي خاصة، بدءًا من النظرية النقدية في فرانكفورت مرورا بدراسات ما بعد البنيوية في فرنسا، ومركز الدراسات الثقافية في برمنجهام ببريطانيا، وليس انتهاءً بمجموعة مثقفي نيويورك أو التاريخانية الجديدة في الولايات المتحدة، أو دراسات ما بعد الكولونيالية، والدراسات النسوية. وفي هذا كله لم يبلور «النقد الثقافي» مجموعة محددة من الإجراءات التطبيقية تحوّل هذه الأفكار النظرية إلى «مانيفستو» تحليلي يختص بمقاربة النص الأدبي، وإنما توسلت بمقولات النقد الأدبي وطرائق تحليل النصوص، سواء من المنهج السيميولوجي أو تحليل الخطاب أو النقد الماركسي.

وفقا لهذه المسيرة الطويلة من الأفكار التي تهتم بمقاربة الظواهر الثقافية والكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة فيها يكون طرح مصطلح «النقد

١- محمد عبد المطلب: **القراءة الثقافية**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٣، ص١٩.

الثقافي» غير دال على التحليل الثقافي للنص الأدبي في رأي د. محمد عبد المطلب، إذ لا نظرية سابقة، ولا منهج محدد سلفا، ولا إجراءات منضبطة، ويكون مصطح «القراءة الثقافية» أقرب إلى الممارسة التحليلية للنص الأدبي التي تستهدف الكشف عن التكوينات الرسوبية للثقافة تحت سطح النص الأدبي؛ وهو طرح سيكون لنا مداخلة عليه في موضع تالٍ في هذا البحث. ولكن قبل طرح مداخلتنا على هذه الإشكالية الاصطلاحية علينا أولا أن نتقصى مفهوم «القراءة الثقافية» عند د. محمد عبد المطلب.

يطرح د. عبد المطلب مصطلح «القراءة» بوصفه فعلا ذا مستويين مترابطين؛ «الأول: يمكن أن نطلق عليه (القراءة الجمالية) التي تتابع ظواهر التعبير إفرادًا وتركيبا ومدى التزامها بمرجعيتها المعجمية، أو انتهاكها لهذه المرجعية، ومن ثم يتمكن القارئ من الوصول إلى المنتج الدلالي العام، وهذه القراءة في حاجة إلى (الكفاءة اللغوية). أما المستوى الآخر، فالمقصود به تلك القراءة التي تتجاوز الأفق الجمالية التي ناوشتها في مواجهة النص، ثم تتسلط على المنتج الدلالي لترده إلى مرجعه الثقافي الذي ولد أنساقه الدلالية، وإذا كان المستوى الأول في حاجة إلى الكفاءة اللغوية، فإن المستوى الثاني في حاجة إلى (الكفاءة الثقافية)، وكما قلنا: إن بين المستويين ترابطا حميما، ذلك أن العلاقة بينهما علاقة جدلية، إذ لا لغة بلا ثقافة، ولا ثقافة بلا لغة»[٢].

يقدم د. محمد عبد المطلب بهذا الطرح تعريفًا متميزًا للقراءة الثقافية، يزاوج في فهمه لها بين الطبيعة الأصيلة للنص الأدبي (أدبيته) وقدرته على تمثيل عالمه في أنساق وخطابات ثقافية يغتني النص بحضورها، بفضل تأويله لها وتحويلها إلى علامات نصية تؤسس لجمالياته الخاصة؛ «فالقراءة الثقافية هي تلك التي تتجه إلى النص، تتأمله بهدف رده إلى الأنساق الثقافية التي تدخلت في إنتاج خطوط الدلالة، سواء تلك الخطوط الطولية التي تتحرك بالمعنى إلى الأمام، أو تلك التي تفسح الطريق أمامه، ومن هذه وتلك يتحقق ما نسميه (المعنى التكاملي)، وهذه الخطوط الطولية تتعانق مع الخطوط الرأسية التي تحفز الدلالة للوصول إلى منابعها العميقة أو المضمرة، أي الوصول إلى الطبقات الثقافية المترسبة في هذه الأعماق»[٣]. يرى د. محمد عبد المطلب، إذن، أن «القراءة الثقافية» قراءة مزدوجة الحركة لا تقف عند حدود الجمالي الظاهر على سطح النص، وإنما تتجاوزه للكشف عن البنى الثقافية العميقة، لتكشف الأقنعة وتهتك الحجب، سواء أكانت أقنعة شفافة أم كثيفة.

٢- السابق، ص١٩.

٣- المرجع السابق، ص٢٠.

من هذا الطرح يمكننا استنباط عدد من النقاط المهمة والدالة في تصور د. عبد المطلب للقراءة الثقافية:

أولا: لقراءة النص الأدبي مستويان مترابطان، مستوى «القراءة الجمالية»، ومستوى «القراءة الثقافية»، وهما مستويان لا ينفصلان، إذا ما أراد الناقد أن يصل إلى «المعنى التكاملي» للنص الأدبي.

ثانيا: أن القراءة الجمالية تقف عند حدود مستويات النص في النقد الجمالي (الصوتي – الصرفي – التركيبي – الدلالي)، أما القراءة الثقافية فإنها تتجاوز هذه المستويات إلى المستوى الثقافي، ويظل المستوى الرمزي في مرحلة وسيطة بين الجمالي والثقافي، فهو يوظف الثقافي لصالح الجمالي.

ثالثًا: يمثل هذا التصور للقراءة الثقافية توسيعا للمستهدف من قراءة النص الأدبي، إذ تستهدف القراءة الجمالية -حسب د. عبد المطلب- ظواهر التعبير الإفرادي والتركيبي ومدى التزامها بالمعنى المعجمي أو انزياحها عنه، أما القراءة الثقافية فتستهدف البعد الثقافي الكامن خلف لغة النص، وهو بعد موجود بالضرورة في كل استخدام لغوي.

رابعًا: تمثل ثنائية (اللغة – الثقافة) عنصرًا تأسيسيًا في مفهوم «القراءة الثقافية»، فاللغة – كما يرى كلود ليفي شتراوس- هي الواقعة الثقافية الأولى بامتياز، وذلك على اعتبارات عدة: (١) يُنظر إلى اللغة بوصفها جزءًا من الثقافة، فهي إحدى الاستعدادات التي نتلقاها من الثقافة التي ننتمي إليها. (٢) اللغة هي الأداة الأساسية والوسيلة الممتازة التي نتمثل بواسطتها ثقافة المجتمع. (٣) تعتبر اللغة أكثر مظاهر النظام الحضاري اكتمالاً، هذه المظاهر التي تتشكل -بصورة أو بأخرى- في أنساق رمزية، فإذا أردنا أن نفهم ما الفن أو الدين أو القانون فإنه يتعين علينا أن نتصورها كقواعد علاماتية تتشكل من خلال النظام اللغوي.[٤]

يرتبط مفهوم «القراءة الثقافية» عند د. عبد المطلب باحترازات وشروط تضبط عملية القراءة هذه، أما الاحترازات فيتمثل أولها في أن مفهوم «القراءة» يعمل على حماية عملية التحليل من الوقوع في شرك إصدار الأحكام التي تتسلط على الثقافة، أكثر من تسلطها على النص، بشكل يحول النقد الثقافي إلى «نقض

٤- يُراجع، كلود ليفي شتراوس: **اللغة هي الحد الفاصل بين الطبيعة والثقافة**، ضمن كتاب «**الطبيعة والثقافة**»، ترجمة: محمد سبيلا، وعبدالسلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٦م، ص٢٦.

ثقافي»، أما الأمر الآخر فيتمثل في أن القراءة الثقافية لا بد لها أن تنطلق من النص لتربطه بأنساق ثقافته، وذلك على خلاف بعض التحليلات الثقافية التي عكست هذا المسار، تلك التي بدأت من أنساق الثقافة لكي تصل إلى أنساق النص، وهذا المسار العكسي يجعل من الناقد الثقافي يقدم على المقاربة التحليلية الثقافية مشحونا بما يختزنه في ذهنه من أحكام بالقيمة عن الثقافة، ويتعامل مع النص بسلطة هذا المخزون، لا بما في النص ذاته، وهذا الأمر قد يقود إلى تحميل النص بما ليس فيه، وإرغامه على تقبل تأويلات وتفسيرات لا صلة له بها، وفي اتجاه معاكس، قد حمل أنساق الثقافة بسلبيات النص وسلبيات منتجه[٥]. ويصف د. عبد المطلب هذا الاحتراز الأخير بأنه من قبيل الخطأ المنهجي؛ ولا شك أن هذين الاحترازين لا يغيب عنهما ظل الممارسة التأريخية والتطبيقية الأشهر في مجال النقد الثقافي العربي، ونقصد بها كتاب: النقد الثقافي «قراءة في الأنساق الثقافية العربية»، للناقد السعودي د. عبد الله الغذامي (٢٠٠١م)، وإن لم يصرح د. محمد عبد المطلب بذلك، فإن حديثه ينطبق على هذه المحاولة النقدية التي كان لها فضل السبق وتحريك المياه في هذا المجال؛ ولا شك أنها محاولة شابها الكثير من القصور شأن البواكير الأولى في أي مجال، وربما كان هذا القصور هو الدافع الحقيقي لطرح د. محمد عبد المطلب لمفهومه عن «القراءة الثقافية».

في المقابل، يضع د. عبد المطلب مجموعة من الشروط الضابطة لعملية «القراءة الثقافية»، منها ما يتعلق بالقارئ / محلل النص، ومنها ما يتعلق بالقراءة ذاتها:

أولا: شرط القارئ الثقافي.

ينطلق أهم شرط من شروط القارئ الثقافي عند د. محمد عبد المطلب من الاحترازات التي سبقت الإشارة إليها، فليس معنى هذه الاحترازات أن يقدم القارئ الثقافي على النص بذهن فارغ تماما، بل إن صحة القراءة الثقافية -في رأي د. عبد المطلب- أن يمتلك القارئ الثقافي ذاكرة ثقافية حية ونشطة، وأن يمتلك وعيًا ثقافيًا عميقًا، وهذا لا يعني أن يقبل على النص وهو يستحضر أنساقًا بعينها يبحث عن صداها في النص. كما أن إقدام القارئ الثقافي على النص بذاكرة فارغة من المرجعيات الثقافية يعني أن قراءته ستنحصر في النسق الجمالي وحده.

٥- يُراجع في ذلك، محمد عبد المطلب: **القراءة الثقافية**، مرجع سابق، ص ٢٠ – ٢١.

ثانيا: شرط القراءة الثقافية.

تتبدى شروط القراءة الثقافية في طرح د. عبد المطلب من مخالفتها لمفهوم القراءة الجمالية، ففي حين تروم القراءة الجمالية أنماط التعبير ومن ثم تميل إلى المشترك العام في الظاهرة اللغوية الاجتماعية، فإن القراءة الثقافية تستهدف مرجعية النص الثقافية. ويؤشر د. عبد المطلب على ركيزة أساسية في القراءة الثقافية، وهي ركيزة التراكم؛ «لأن التراكم هو ما يكسب القراءة نوعا من الشمول الرأسي والأفقي، فالتراكم هو الذي يستحضر الطبقات الرسوبية لكل نسق ثقافي على حدة، ثم يربط بين الأنساق – في مجملها- على وجه العموم، على أن يلاحظ أن هذه الأنساق تأتي مغلفة بالجمالي حينًا، وبالنفسي حينا، والاجتماعي حينا، والعلمي حينا، والعقدي حينا، واللغوي في كل الأحيان»[٦]. وهذه الركيزة (التراكم) تناقض مفهوم القطيعة المعرفية الذي شاع في إطار الحداثة وما بعدها، فالقاعدة الأساسية للوعي الثقافي أن يرى اللاحق ابنا شرعيا للسابق، وامتدادا له.

* * * * *

النقد الثقافي والدراسات البينية

يطرح د. محمد عبد المطلب مفهومي «النقد الثقافي» و«القراءة الثقافية» كأحد المحطات المهمة الدالة على «المسيرة البينية للنقد الأدبي»، وهو التعبير الذي اختاره عنوانا لكتابه حول هذا الموضوع[٧]، ولا شك أن المداخلة الثقافية على تحليل النص الأدبي -سواء اتفقنا مع د. عبدالمطلب في كونها قراءة أو اختلفنا- تمثل أفقا مبشرا في مجال الدراسات البينية متداخلة الاختصاصات Interdisciplinary أو متعددة الاختصاصات Multidisciplinary وعلاقتها بقراءة النصوص الأدبية، ذلك أن انفتاح قراءة النص الأدبي على مفهوم الثقافة وخطاباتها المكونة لها يعني استدعاء الخطابات الثقافية كافةً، باعتبار الثقافة جامعة لكل الخطابات المعرفية. فعلى الرغم من كون الثقافة مفهومًا كليا يستعصي على التحديد المفهومي الدقيق، فإن تمثلها بوصفها كلا جامعًا للخطابات يعني انفتاح مرجعيات النص الأدبي على كل ما يمكن استدعاؤه منها للكشف عن البعد الثقافي الكامن في النص، وأثره في بناء جماليات النص. يقدم عالم الاجتماع الإنجليزي إدوارد تايلور Edward

---

٦- المرجع السابق، ص٢٣.

٧- محمد عبد المطلب: **المسيرة البينية للنقد الأدبي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨م.

Taylor في كتابه «الثقافة البدائية» تعريفا مهما للثقافة بوصفها: «ذلك الكل المركب الذي يتضمن المعرفة والمعتقد والفن والأخلاق والقانون والعادات، وأي قدرات أو عادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع»[٨].

ولا شك أن تعريفا كهذا للثقافة، ومن ثم مركزيته في قراءة النصوص الأدبية ثقافيًا يتلاقى مع طرح د. عبد المطلب حول «القراءة الثقافية»، بوصفها قراءة تتسع عن انغلاق القراءة الجمالية النصية التي تستهدف لغة النص ونسقه الداخلي وعلاقته بمرجعيته اللغوية، إلى المرجعيات الثقافية المؤسسة لهذا النص والفاعلة فيه. وهو طرح أشار إليه إمبرتو إيكو Umberto Eco في إطار طرحه لمفهوم الموسوعة في مقابل القاموس، بوصف الموسوعة مفهومًا يكاد يكون مطابقًا للثقافة في شموليتها للخطابات المعرفية كافةً. يحدد الموسوعيون فاعلية الموسوعة في إقامة تحديد منضبط لتأويل علامات النص بما يلي:

١- الموسوعة هي مسلمة سيميائية، أي فرضية معرفية يجب أن تستثير الاكتشافات والتمثلات الجزئية للكون الموسوعي.

٢- لا فرق بين المعرفة اللسانية ومعرفة العالم، ففي الحالتين يتعلق الأمر بمعرفة ثقافية يتم داخلها شرح كل واقعة سيميائية، استنادًا إلى الوقائع الثقافية الموسوعية.

٣- إن المعرفة الموسوعية لا تندرج تحتها كل المعارف المخصوصة الممكنة التي يتوفر عليها فرد معزول عن سياقه الاجتماعي، وإنما تشتمل على تلك المعارف التي تدرجها الثقافة ضمن الإرث المعرفي الجماعي.[٩]

والمميز في هذا الطرح لمفهوم «الموسوعة» أنه يحاول تنظيم مفهوم الثقافة بنائيًا، ووفقًا لخطابات محددة تشكل أفقًا مرجعيًا لتأويل العلامات النصية ولاحتواء سيرورتها السيميائية، فالسمات الدلالية والترادفات وغيرها من التمثلات اللغوية للعلامة لا تتوقف -من منظور التمثيل الموسوعي/ الثقافي- عند حدود التفسير المعجمي، وإنما تكون عناصر لها وظيفة ميتا لغوية، بل

٨- شارلوت سيمور – سيمث: **موسوعة علم الإنسان «المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية»**، ترجمة: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٢٤٥.

٩- إمبرتو إيكو: **العلامة «تحليل المفهوم وتاريخه»**، ترجمة: سعيد بنگراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م، ص١٦٤.

تتجاوز ذلك كي تصبح مؤولات قابلة للتطور في شكل ممثلات جديدة لموضوع العلامة؛ فالمؤول ليس مجرد علامة تعبر عن علامة أخرى (الممثل)، ولكنه توسيع لمفهوم من خلال إضافته المعرفية المستقاة من العلامة الأولى، وهذا التوسيع يجعل كل مؤول بمثابة علامة تحمل بعدا ثقافيا، فتكون بمثابة الوحدة الدلالية التي تحيل إلى خطاب ما، وتنتظم هذه الوحدات (الخطابات) داخل المكون الكلي للثقافة. والعلامة الأدبية كذلك ليست مجرد علامة تقف عند حدود معجمها، وإنما تمتد سيرورتها التأويلية لتنتمي مؤولاتها إلى نسق معرفي أوسع، يندرج بدوره ضمن الامتداد الموسوعي للخطاب، ومن ثم يكون ينفتح تأويل العلامة الأدبية بوصفها علامة ثقافية منفتحة على مجموع المعارف التي تتمايز فيما بينها في صورة أنساق من الوحدات الدلالية، وتتوزع هذه الوحدات الدلالية على محاور متقابلة لتعبر عن الطريقة التي تمفصل بها الثقافةُ العالمَ القابل للإدراك.

وهذا التصور للبعد الموسوعي لمرجعيات العلامات النصية يقع في قلب مفهوم د. محمد عبد المطلب للقراءة الثقافية، بشكل يصنفها ضمن النموذج التكاملي The integrationist model في الدراسات متعددة التخصصات، وهو نموذج يركز جل اهتمامه على المشكلات وليس المنهجيات، وهو النموذج الذي تنتمي إليه الدراسات الثقافية بشكل عام، ويختلف عن النموذج المركزي The centralist model الذي لا يولي اهتماما كبيرا بالمنهجيات في مقابل العمل على حل الإشكاليات من خلال دراسة الظاهرة من منظور التخصصات المتداخلة المتكافئة[١٠]؛ وهو ما يتلاقى مع طرح د. عبد المطلب لمفهوم القراءة الثقافية بوصفه حلا لإشكاليات طُرحت في النموذج العربي السائد للنقد الثقافي من قبيل إصدار أحكام القيمة على النص، أو الانطلاق من الثقافة إلى النص وليس العكس. كما أن المبادئ الأولية والضوابط المنهجية التي أشار إليها د. عبد المطلب لم تتجاوز إطار حل الإشكاليات إلى وضع تأسيس معرفي للتحليل الثقافي للأدب أو إجراءات مقترحة ومحددة للتحليل الثقافي للنص الأدبي. يقول د. محمد عبد المطلب: «أما الأدوات المنهجية التي تستعين بها القراءة الثقافية، فهي غير قابلة للحصر، ومن ثم نقدم هنا أهم هذه الأدوات:

١٠- لمزيد من التفصيل يُراجع، تيو فان لفن: **ثلاثة نماذج لتداخل التخصصات**، ترجمة: سامح كمال، مجلة فصول (مجلة النقد الأدبي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد (٢٦/ ٢)، العدد ١٠٢، شتاء ٢٠١٨، ص٣٣ وما بعدها.

١- متابعة المنتج الثقافي على مستوى السطح اللغوي لتحديد السياقات الثقافية التي أنتجته.

٢- ملاحظة التراكم الذي تسلط على السياقات والأنساق.

٣- تحديد الأقنعة الجمالية لكشف خلفيتها الثقافية.

٤- متابعة الشخوص والمكان والزمان والبيئة وربط كل منها بمرجعيته الثقافية.

٥- النظر في التناص بوصفه ظاهرة ثقافية مركزية.

٦- تحديد المكون الشعبي والسلطوي، والهامشي والمتني، ومرجعية كل منها ثقافيا.

٧- إعطاء عناية في القراءة للأساطير والخرافات والرموز الشعبية.

٨- التركيز على الطقوس الحياتية في المأكل والمشرب والملبس والعلاقات الاجتماعية المتنوعة وعلاقات السلم والحرب والأخذ والعطاء الثقافي.

٩- اهتمام القراءة بمتابعة عالم الحيوان والجماد والطبيعة الساكنة والمتحركة»[١١].

وكما يبدو فإن هذه أدوات عامة، لا تحدد إجراءات محددة ومنضبطة لعملية قراءة النص الأدبي، وهي من جهة ما تؤشر إلى إمكان تحولها إلى إجراءات، وقد فضّل د. محمد عبد المطلب أن تكون شديدة التعميم حتى يكون لكل قارئ ثقافي رؤيته الخاصة في تحويلها إلى إجراءات بحسب مقتضيات النص المقروء ثقافي، وهي أدوات تتعاضد مع تصور د. عبدالمطلب للقارئ الثقافي وشروط وعيه الثقافي، وموسوعيته، وشروط القراءة الثقافية، وبخاصة «التراكم» في كونها تمثل إطارا عاما وحسب، ولا شك أن هذه الأدوات بحاجة إلى مزيد من التفصيل فيما يتعلق بإشكاليات أخرى، منها ما يتعلق بالنص الأدبي نفسه وطبيعته الجمالية، وخصوصية هذه السمة؛ ومنها ما يتعلق بعلاقة لغة النص وعالمه بالعالم خارجه ومنظومته الرمزية (الثقافة)، ومنها ما يتعلق بمستويات قراءة النص وغايتها، ومنها ما يتعلق بمناهج النقد الأدبي ومقولاتها وانتقاء ما يلائم كل نص من مقولات نقدية.

في الجزء الآتي من هذه الدراسة سنعمل على مناقشة عدد من الإشكاليات المعرفية التي طرحها أستاذنا الدكتور محمد عبد المطلب، بهدف نقدها

١١- محمد عبد المطلب: **المسيرة البينية للنقد الأدبي**، مرجع سابق، ص١٩٣ – ١٩٤.

(بالمفهوم الجدلي الماركسي للمصطلح)؛ وكذلك بهدف تفعيل مبدأ «التراكم» المعرفي، وليس لغاية أخرى سوى محاولة تقديم عدد من الأفكار القابلة لتحويل عملية القراءة الثقافية إلى آلية منضبطة منهجيًا. ونؤكد على مفردة «محاولة»، فجدارة الفكرة -أي فكرة- لا تكون بكونها قاطعة، وإنما بقابليتها للمناقشة وإثارة التساؤلات والوصول إلى حلول نسبية لإشكالياتها المعرفية.

* * * * *

إشكاليات منهجية

١- اللغة – الثقافة.

في الإطار العام لمجال التحليل الثقافي للأدب لا تغفل مناقشتنا إشكالية العلاقة بين اللغة والثقافة العنصر الثالث الذي يقع بينهما، وهو النص الأدبي. وحقيقة الأمر أن هذه الثنائية (اللغة – الثقافة) ليست ثنائية على الإطلاق، إذ لا انفصال بينهما، فمثلما لا ثقافة بدون لغة ترمِّزها، فكذلك لا لغة بدون محتوى ثقافي؛ ولا شك أن هذه العلاقة الجدلية والملتبسة بحاجة إلى فكٍ للاشتباك بين عنصريها، ومن ثم لا مناص من اعتبارها ثنائية – على المستوى الإجرائي فقط- لاستقصاء المفهومين، وطرح تصور للنص الأدبي في ضوء علاقته بهما.

سبق أن أشرنا إلى مفهوم إدوار تايلور للثقافة بوصفه المفهوم الأقرب إلى الوصف الذي ينقل الثقافة من المستوى التجريدي إلى مستوى الوقائع الاجتماعية والممارسات الإنسانية، كما أنه يحدد بدقة مكونات الكل الثقافي بشكل يساعد على تمثلها، ومن ثم فهو يؤشر على الطبيعة الرمز-لغوية للثقافة، أي باعتبارها منظومة من الخطابات المنتظمة في شكل رمز-لغوي، ويمكن من خلال ذلك أن نستخلص مجموعة من الخصائص المشتركة بين اللغة بوصفها منظومة رمزية، والثقافة بوصفها محتوى هذه المنظومة:

أولا: كل من اللغة والثقافة ظاهرة مكتسبة، بمعنى أنها ليست منظومات فطرية يولد الإنسان بها جاهزة، وإنما يولد مفطورا على آليات تحصيلهما، ويظل يكتسبهما عبر الوسيط الاجتماعي.

ثانيا: اللغة والثقافة ظاهرتان اجتماعيتان، بمعنى أنهما لا توجدان كاملتان عند فرد واحد، وإنما في المجتمع ككل، فهما ليستا مهارتان فرديتان. ولأن اجتماعية أي ظاهرة شرط لثقافيتها، فإن الشرط الاجتماعي اللازم لتحقق قاعديتها يعني وقوع اللغة في دائرة الإمكان الثقافي.

ثالثا: كل من اللغة والثقافة ظاهرة تطورية، بمعنى أنها قابلة للإضافة، بما يسمح لشروط الخبرة الاجتماعية من ممارسة فعلها عليهما؛ وإذا كان للمجتمع آلياته المختلفة في تقييم الخطابات المكونة للثقافة وتطويرها لتحقيق تكاملية معرفية تنتج كُلاً معرفيًا له نسقه المنضبط نسميه «ثقافة»، فإن للجماعة اللغوية أيضا آلياتها في تقييم نسقها اللغوي ليتواءم مع تطور خطابات الثقافة، ما يعزز الوظيفة التواصلية بين أفراد المجتمع.

رابعا: كل من اللغة والثقافة ظاهرة انتقالية، بمعنى أنها قابلة للاستمرار والانتقال عبر الزمان والمكان بفضل خصائصها السابقة كلها.

ولا شك أن هذه العلاقة التلازمية بين اللغة والثقافة تعني أن كل استخدام لغوي ينطوي على قدر ما من الثقافي، وبدون هذا البعد الثقافي تظل دلالة الاستخدام اللغوي معلقة إلى حين؛ وعلى هذا الأساس يمثل الطرح اللساني -عند كل من فرديناند دي سوسير وتشارلز ساندرس بيرس ورومان جاكوبسون، وامتدادته السيميولوجية عند رولان بارت وأرنست كاسيرر وامبرتو إيكو، وتمثلاته في قراءة الخطاب عند ميشيل فوكو وإدوارد سعيد- أساسًا معرفيا ومصدرا منهجيا يمكن تعديله والإضافة إليه وتوجيه غاياته بما يتلاءم مع خصوصية النص الأدبي، بوصفه استخداما لغويا «نوعيا». وربما يكون هذا الأساس هو ما دفع محللي الظواهر الثقافية إلى الاعتماد على المنجز السيميائي في قراءتها كأحد المداخل الضرورية لفهم الظواهر الثقافية وتحليلها، على أساس متلازمة (الثقافة - اللغة)، فليس هناك نظام لغوي/ سيميائي دون أن ينطوي على دلالات ثقافية يشير إليها، كما أن الثقافة تتوسل بالأنظمة السيميائية -كما يرى شتراوس- في تنظيم حياة البشر بنائيًا؛ ومن ثم يمكننا القول بأن النظام اللغوي هو الوعاء الذي تتجسد فيه الثقافة، كما أن الثقافة في مفهومها المجرد هي المدلول الكلي للنظام اللغوي العام، وهي المؤول الأكثر سعة للعلامات اللغوية، من ناحية أخرى. هذه العلاقة الجدلية بين كل من الثقافة والنظام السيميائي هي ما دفعت الكثير من الباحثين إلى الاستناد على مبادئ النظرية السيميائية في تحليل الظواهر الثقافية، على اعتبار أن هذه الأخيرة ما هي إلا دوالٌ لمفاهيم/مدلولات ترسم إطارًا للبنية الاجتماعية.

٢- الجمالي – الثقافي.

تمثل إشكالية العلاقة بين الجمالي والثقافي محورا مهما في إشكاليات التحليل الثقافي للنص الأدبي، فقد درجت الدراسات الثقافية على تناول الظواهر الثقافية المختلفة، ومن ضمنها النص الأدبي، ليس انطلاقا من خصيصتها الجمالية، وإنما اتكاءً على كونها -شأن كل الظواهر- تنطوي على أنساق ثقافية مضمرة، ومن ثم يكون هدف التحليل الثقافي استظهار هذه الأنساق الثقافية الحاكمة والفاعلة في تشكل هذه الظواهر؛ ولا شك أن هذا التصور للدراسات الثقافية وما تستهدفه من تحليل الظواهر الثقافية يجعلها أقرب إلى دائرة البحث الاجتماعي والأنثروبولوجيا الثقافية من كونها تنتمي إلى النقد الأدبي، بوصفه حقلا معرفيا يختص بالكشف عن البعد الجمالي في النصوص الأدبية. ولعل هذه الإشكالية كانت العنصر الفاعل فيما طرحه الناقد السعودي د. عبد الله الغذامي من تبشيره بأن النقد الثقافي يجب أن يحل محل النقد الأدبي، على اعتبار أن هذا الأخير أحدث حالة من "العمى الثقافي" في المجتمعات العربية، وذلك لأنه كرس -حسب رأيه- لمفاهيم رجعية تسربت من الشعرية العربية إلى الذات العربية! ولعل طرح الغذامي هذا هو ما دفع د. محمد عبد المطلب إلى طرح عدد من الاحترازات بشأن التحليل الثقافي للنص الأدبي، ومن ثم تفضيله لمصطلح «القراءة الثقافية» على مصطلح «النقد الثقافي».

ونزعم اختلافنا الجذري مع طرح د. الغذامي بشأن تناسخ الحقول المعرفية، أو حتى ما حاول تجميله حين قال أن هدفه ليس إلغاء المنجز النقدي الأدبي كليةً، وإنما تحويل الأداة النقدية من أداة لقراءة الجمالي الخالص إلى أداة لنقد الخطاب، وكشف أنساقه، فإنه لم يحدد صفة لهذا الخطاب: هل هو الخطاب السياسي؟ أم الاجتماعي؟ أم الديني؟ أم الثقافي الجامع لكل هؤلاء؟ فالنص الأدبي قادر على احتواء كل هذه الخطابات، وقادر على إخضاعها لشروطه الجمالية، بل قادر على إزاحة هذا الخطاب أو ذاك عن مقاصده الأساسية لصالح مقاصد النص وغاياته الجمالية، ومن ثم قادر على صياغة خطابه الجمالي الخاص به، الذي يتطلب قراءة جمالية لهذا الخطاب. وحقيقة الأمر أن ثنائية «الأدبي/ الجمالي» و«الثقافي»، ليست ثنائية على الحقيقة، فثمة نسق ينظم أدبية الثقافي وثقافية الأدبي، بما يجعل منهجية القراءة الثقافية في بحثها عن هذا النسق، تتجاوز محددات النقدي منفردًا، وتتحرر من مقولات الثقافي وحدها، لتراوح بينهما محققة ما يشبه «النص الجامع» بمفهوم جيرار جينيت[١٢] الذي لا

١٢- يعرّف جيرارد جينيت «النص الجامع» بأنه مجموع الخصائص العامة أو المتعالية التي ينتمي إليها كل نص على حدة، ومن هذه الأنواع التي تحدد جامع النص: أصناف الخطابات

لا يتميز فيه هذا من ذاك. ولا شك أن تصورا كهذا يعني بالضرورة النظر إلى مفهوم الجمالي بوصفه معطى ثقافي، فشروط الجمالي ومعاييره ترتكز بالضرورة على أنساق ومحددات اجتماعية، ومن ثم ثقافية. «إن فكرة الجمال، التي تحدد مفاهيم الجميل والجذاب، تنهض بالطبع على أساس ثقافي. كما أنها، وعلى نحو يشبه الأفكار المتعلقة بالفن، تختلف حسب السياقات الثقافية. وتنطوي الخبرة الجمالية على إحساس (انفعال) وإدراك؛ حيث حدد دازفيدو D'azevedo (١٩٥٨) التأثير الجمالي بوصفه صدمة إدراك تحدث عند إدراكنا للتقابل بين خصائص الموضوع الجمالي وتفاعلاتها مع الخبرة الذاتية للفرد. إن الفن ذاته يعد مكونا اجتماعيا من العناصر الجمالية»[١٣].

ولعل هذا المكون الاجتماعي (الثقافي) للعناصر الاجتماعية هو ما يسم مجتمع ما بسمات خاصة به حول مفهوم «الجميل»، بل إن هذه السمات تتغلغل إلى النسق الإدراكي لذوات هذا المجتمع في تحديد مناط الجمال في الظواهر؛ «فعلى سبيل المثال حين تطلب من مجموعة ممن يعيشون في الثقافة الغربية تصور «مثلث»، فإنهم سيميلون إلى تصور مثلث متساوي الأضلاع، وسيكون إدراكهم الذهني هذا تمثيلًا لشكل «المثلث» بصفة عامة؛ في حين سيُنظر إلى المثلثات قائمة الزاوية، والمثلثات منفرجة الزاوية وحادة الزاوية بوصفها أنواعًا فرعية. ويرجع السبب في هذا إلى أن المفهومين الهندسي geometrical والجمالي aesthetic للمثلث تأسسا وفقًا للمفهوم اليوناني القديم الذي انتقل إلى علم الهندسة والفنون في عصر النهضة؛ حيث تأسس المفهوم اليوناني من خلال مفهومي الكمال perfection والتماثل symmetry، ويُعد تصور «المثلث» ذهنيًا من خلال النموذج متساوي الأضلاع بوصفه نموذجًا ثقافيًا أوليًا هو نتيجة حتمية لذلك التقليد المفهومي (الكمال والتماثل)، والذي يقوم بدوره في التفكير الجمعي من خلال الممارسة التمثيلية»[١٤].

وقد أشار د. محمد عبد المطلب إلى أمر قريب من هذا الطرح بقوله عن الشعر العربي القديم: «وبهذا الوعي يدخل الإبداع دائرة الثقافة بوصفه صناعة ..

وصيغ التعبير والأجناس الأدبية، وهذا النص الجامع -وليس النص فقط- هو موضوع قضية الشعرية. لمزيد من التفصيل يُراجع في ذلك، جيرار جينيت: **مدخل لجامع النص**، ترجمة: عبدالرحمن أيوب، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥م، ص٥.

١٣- شارلوت سيمور – سميث: **موسوعة علم الإنسان «المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية»**، مرجع سابق، ص٣٩٨.

14 - Marcel Danesi: Visual Rhetoric and Semiotic; Oxford Research Encyclopedia of Communication, Oxford University Press USA, 2016. Online Publication Date: May 2017.

ومعنى هذا أن الشعر (العربي) معطى ثقافي يوازي الثقافة في عمومها»[١٥]. وهذه المقولة على الرغم من قصرها فإنها مكثفة وبحاجة إلى تفكيك وتفصيل؛ فالشعر العربي ليس فقط معطى ثقافيا على أساس لغويته، أو على اعتبار كونه صنعة وحرفة، وإنما أيضا باعتبار موضوعاته وأغراضه على طول عصوره التاريخية، بل إن هذه الموضوعات والأغراض التي تنتمي إلى الاجتماعي (الثقافي) قبل انتمائها إلى النصي (الجمالي) أصبحت إحدى سماته الجمالية؛ فأصبح من مقتضيات تدبيج القصيدة وتجميلها -في عصور الشعر الأولى على سبيل المثال - البدء بغرض بعينه ثم التثنية بآخر وهكذا. ومن ثم يمكننا القول أن إسقاط صفة الجمالي على شيء ما يبدأ في الأصل فرديًا، ولكنه لا يلبث أن يلقى استحسان الجماعة الاجتماعية، فيتحول من ممارسة فردية إلى قيمة اجتماعية، ومن ثم يكتسب بعدًا ثقافيًا مميزا لهذا المجتمع. وبكلمة، فإن كل جمالي ينطوي في داخله على حكم ثقافي بالقيمة، سواء كانت هذه القيمة دينية أو أخلاقية أو لغوية أو أيا كان وسمها، وهو الأمر الذي استطرد فيه فلاسفة علم الجمال.

وإذا ما نظرنا إلى عنصر آخر من عناصر تحديد «الجمالي»، وهو «الذائقة»، سنجد أن هناك عوامل خارج النص الأدبي ونسقه هي ما تحدد صفة «الجمالي». يقترح ماير Lindauer Mayer مكونين أساسيين في عملية التذوق، «أحدهما هو الذكاء الجمالي، وهو المرتبط أكثر بعمليات الإدراك، وقد تصوره ذا جذور وراثية إلى حد كبير، أما الآخر فهو الحكم الجمالي، أو الذكاء التقويمي، وقد تصوره مكتسبًا ومتعلمًا وراجعًا إلى الخبرة إلى حد كبير»[١٦]؛ ويعد مداخلة مفاهيم الذكاء الجمالي (الإدراكي الذاتي) والخبرة والطبيعة المكتسبة للذائقة عنصرا مهما في توجهنا نحو البعد الثقافي للجميل، فمجموعة المعايير والضوابط التي يعتمدها الفرد في حكمه على شيء ما بأنه «جميل» أو بكونه تمثيلا للظاهرة الجمالية هي معايير معطاة مسبقًا من قبل المجتمع، ومن ثم فهي تمثل وعي المجتمع حول ظاهرة ما. فالجمالي ليست صفة قارة في الظاهرة، وإنما هي إسقاط لتصورات المجتمع (ثقافته) على هذه الظاهرة، ومن ثم الحكم عليها، ولأن تصورات المجتمعات مختلفة، ومبادئها القيمية والأخلاقية والدينية والفنية والأدبية مختلفة يختلف تصور الجميل من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى، ومن فرد لآخر. «إن عملية التذوق وما يصاحبها من حساسية وأحكام جمالية وتفضيل جمالي عملية تتغير متأثرة بالخبرة، سواء على مستوى الفرد أو على مستوى الجماعة، اعتمادا على النماذج الجمالية التي يتعرض

١٥- محمد عبد المطلب: **المسيرة البينية للنقد الأدبي**، مرجع سابق، ص١٨٤.

١٦- شاكر عبد الحميد: **التفضيل الجمالي «دراسة في سيكولوجية التذوق الفني»**، عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس ٢٠٠١م، ص٣٠.

المرء لها، واعتمادا أيضا على الأذواق السائدة في المجتمع، وعلى عمليات أخرى كثيرة، بعضها تربوي، وبعضها اجتماعي، وبعضها إعلامي»[١٧]. إن هذا التصور لإسقاط خصيصة الجمالي على الظاهرة تصور أساسي في هدم ثنائية (الجمالي – الثقافي) والعمل على دمجهما للوصول إلى صيغة مقبولة لتحليل النص الأدبي (الجمالي) ثقافيًا؛ فليس «الجمالي» جماليا خالصا بسبب طبيعة النسق الموسوم بهذا الاسم، وإنما هو نتيجة لعوامل اجتماعية ونفسية وذهنية ومعرفية وأخلاقية، ومن ثم يمكن القول أنه نتاج ثقافي. بما يعني أن قراءة الجمالي تتضمن في بعد منها قراءة الثقافي المؤسس لهذا النسق الجمالي، وهو أمر أشار إليه كل من د. عبد الله الغذامي، ود. محمد عبد المطلب، كلٌّ حسب مرجعيته ورؤيته وتصوره لمفهوم التحليل الثقافي للنص الأدبي، وغايته من هذا التحليل.

٣- غاية التحليل الثقافي للأدب:

على الرغم من تعدد مفاهيم الأدب ومن ثم تعدد نظرياته، فإن المشترك العام بين هذه النظريات أن النص الأدب في جوهره «تعبير لغوي جمالي»، وأنه يهدف إلى «إمتاع القارئ والتأثير فيه وجدانيًا»، وهذا المشترك حقيق بأن ينظر إليه بعمق للوصول إلى تصور لضبط عملية تحليل النص الأدبي ثقافيا. وإذا كان العنصر «اللغوي» في الأدب عنصرا حاسمًا في إمكان مداخلة الثقافي على تحليل النص الأدبي، فإن الخصيصة الجمالية للنص الأدبي تمثل إشكالية في هذا التحليل؛ ذلك أن التحليل الثقافي للظواهر الثقافية المختلفة يستهدف بالأساس الكشف عن الأنساق الثقافية المضمرة التي تسربت لا شعوريا إلى النص، والتي أثرت في بنائه وشكله وعلاماته، إلى الحد الذي تطرف معه الناقد الأمريكي ستيفن جرينبلات فطرح مقولة «الذات صنيعة الثقافة»، بمعنى أن الثقافة هي المؤلف الفعلي للنص الأدبي، وما المؤلف (الذات) إلا صدى لهذا الإرث الثقافي المكون له. وهي مقولة صحيحة نسبيًا، ولكنها تفترض سؤالا منطقيا آخر، وهو: «الثقافة صنيعة من؟»

وعلى الرغم من استلاب التصور الغربي للتحليل الثقافي لطرح د. الغذامي، وعلى الرغم من المرجعية التراثية لطرح د. عبد المطلب، فإن كليهما لم يخرجا عن هذا التصور الذي يحصر غاية التحليل الثقافي للأدب في كشف الأنساق الثقافية المضمرة في النص. وربما يكون هذا الأمر مفهوما في طرح د. الغذامي، وبخاصة في ظل دعواه بأن يحل النقد الثقافي محل النقد الأدبي،

١٧- المرجع السابق، ص٣٤.

فالخروج من دائرة النقد الأدبي -وهو طرح نتحفظ عليه- يجعل من المقبول إجرائيا أن تتحول غاية التحليل الثقافي عن الجمالي كلية، وأن يكون هدفها استكشاف الثقافي المضمر؛ ولكنه أمر يدعو إلى التساؤل -إن لم يكن إلى الدهشة- في ظل رفض د. محمد عبد المطلب لمقولة تناسخ الحقول المعرفية هذه، فتصور القراءة الثقافية كخطوة ثانية وتالية لخطوة القراءة الجمالية – كما في طرح د. عبد المطلب- يعني أن الخصيصة الجمالية ما زالت حاضرة في وعي القارئ الثقافي، ومن ثم فإن حصر القراءة الجمالية في حدود اللغوي الإفرادي والتركيبي والتوقف في القراءة الثقافية عند حدود استكشاف الثقافي المضمر بحاجة إلى إعادة نظر، تأسيسا على أن «الجمالي» صورة من الصور المتعددة لتجليات الثقافي.

يقول د. محمد عبد المطلب في توضيح مقصوده بالقراءة الثقافية: «هي تلك القراءة التي تتجاوز الأفق الجمالية التي ناوشتها في مواجهة النص، ثم تتسلط على المنتج الدلالي لترده إلى مرجعه الثقافي الذي ولد أنساقه الدلالية، وإذا كان المستوى الأولى (القراءة الجمالية) في حاجة إلى الكفاءة اللغوية، فإن المستوى الثاني (القراءة الثقافية) في حاجة إلى الكفاءة الثقافية»[١٨]. وهذا الطرح في تكريسه للتوقف عن حدود الثقافي المضمر يتأسس على مفهوم التراكم، بوصفه ركيزة مهمة من ركائز القراءة الثقافية؛ «فالتراكم هو الذي يستحضر الطبقات الرسوبية لكل نسق ثقافي على حدة، ثم يربط بين الأنساق – في مجملها – على وجه العموم، على أن يلاحظ أن هذه الأنساق تأتي مغلفة بالجمالي حينا، وبالنفسي حينا، والاجتماعي حينا، والعلمي حينا، والعقدي حينا، واللغوي في كل الأحيان»[١٩]. إن تصورًا كهذا للقراءة الثقافية أو لركيزتها (التراكم) يعني أن نظل بصدد النظر إلى النص الأدبي بوصفه مجرد ظاهرة ثقافية شأنه شأن كل الظواهر الثقافية الأخرى، بمعنى أن القراءة الثقافية ستظل تستهدف الثقافي المضمر في النص، والذي ينتمي أصلا إلى الثقافة بوصفها المرجعية الأوسع، أي أن يُقرأ النص ثقافيا بهدف استكشاف صدى ما هو واقع خارجه. ولا شك أن هذه الغاية مهمة في مجالات معرفية أخرى، كالأنثروبولوجيا الثقافية وعلم الاجتماع؛ لكنها ليست الغاية المركزية للنقد الأدبي بوصفه الحقل المعرفي الذي يختص بدراسة النص الأدبي في ظل خصيصته الأساسية التي تميزه عن غيره من الظواهر الثقافية، وهي أنه «نص جمالي». ولذلك فإن حصر غاية القراءة الثقافية في كشف الثقافي المضمر يجعل النص الأدبي بمثابة الوثيقة

١٨- محمد عبد المطلب: **القراءة الثقافية**، مرجع سابق، ص١٩.
١٩- المرجع السابق، ص ٢٣.

الاجتماعية، أو المدونات الإثنوجرافية؛ وهو إهدار للقيمة الجمالية التي تميز الأدب، وتحقق وظيفته الإمتاعية.

صحيح أن للأدب وظائف اجتماعية أو نفسية أو اتصالية أو إفهامية أو غيرها؛ لكن هذه الوظائف تظل في إطار الوظائف الثانوية التي تهيمن عليها الوظيفة الأدبية، حسب مفهوم رومان جاكوبسون لوظائف الاتصال اللغوي[٢٠]. وهيمنة الوظيفة الأدبية تعني أن كل تحليل نقدي للنص الأدبي -أيا كان وسمه أو منهجه أو منهجيته- يجب أن يضع هذه الوظيفة الأدبية المهيمنة في حسبانه؛ ومن الصحيح أيضا أن العلامات النصية تحيل إلى أنساق ثقافية مضمرة، لكن هناك أيضا بعض العلامات الثقافية التي تحيل قصدًا إلى أنساق ثقافية بشكلٍ واعٍ؛ بمعنى أن المؤلف قد يعمد في كثير من الأحيان إلى توظيف بعض العلامات ذات الإحالات الثقافية، أي تلك العلامات التي تحتاج إلى ما هو أكبر من المعرفة اللغوية في فهم مرجعياتها ودورها الوظيفي «الجمالي» في النص. وهذا التصور يجعلنا ننظر إلى غاية التحليل الثقافي للأدب من منظور مختلف، إذ نتصور كلا من «القراءة الجمالية» و«القراءة الثقافية» في إطار جامع للتحليل الثقافي للنص الأدبي، بشكل يستدمج القراءة الثقافية في إطار عملية تحليلية أوسع للنص الأدبي، ومن ثم فإننا نقترح أن يكون للتحليل الثقافي للأدب مستوى ثالث -مضافًا إلى مستويي القراءة الجمالية والقراءة الثقافية - يستقرئ العلامات النصية ذات المرجعية الثقافية الحاضرة قصدا ووعيا من المؤلف، ومحاولة الكشف عن الأثر الجمالي الذي نتج عن توظيف الثقافي في إطار الجمالي، ويمثل هذا المستوى الثالث (التحليل الثقافي) محاولة للمزج بين نتائج المستويين الأول (القراءة الجمالية) والثاني (القراءة الثقافية) ليستكمل عملية التحليل الثقافي للنص الأدبي.

* * * * *

٢٠- يطرح رومان جاكوبسون مفهوم الوظيفة اللغوية في إطار تناوله لنموذج الاتصال اللغوي، حيث يرى أن لكل عنصر من عناصر نموذجه للاتصال اللغوي وظيفة محددة، بيد أن هناك وظيفة ما من هذه الوظائف تهيمن على الاتصال فتسمه بسماته، دون أن يعني هذا غياب الوظائف الأخرى.
لمزيد من التفصيل يُراجع في ذلك، فاطمة الطبال بركة: **النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون «دراسة ونصوص»**، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩٣م، ص٦٨

خاتمة: إشكالية المصطلح (النقد– القراءة – التحليل).

تمثل إشكالية المصطلح وتحديداته المفاهيمية حجر الزاوية في إشكاليات النقد الثقافي العربي، وقد ناقشنا هذه الإشكالية في بداية الدراسة، ونود أن نختمها بها بشكل أكثر تحديدا نظرًا لأهميتها ومركزيتها، وتتمثل في النقاط الآتية:

١- يعد مصطلح «النقد الثقافي» مصطلحا جامعًا يعبر عن مجموعة المقولات النظرية والتطبيقية حول علاقة النص الأدبي بالثقافة، بالإضافة إلى تاريخ هذه العلاقة خارج حقل النقد الأدبي فيما عرف باسم «الدراسات الثقافية»، بمعنى أننا نتصور هذا المصطلح يجمع تحت مظلته كل من «القراءة الثقافية للأدب» و«التحليل الثقافي للأدب».

٢- يمثل مصطلح «القراءة الثقافية» كما طرحه د. محمد عبد المطلب، وحدد مفهومه بدقة مصطلحًا مهما وجوهريا في دراسة العلاقة بين الثقافة والأدب، وهو -فقط- بحاجة فقط إلى تعديل الغاية من هذه القراءة، أي أنه بحاجة إلى توسيع دائرة المستهدف من القراءة الثقافية للنص، لتتجاوز الثقافي المضمر إلى الأنساق الثقافية الموظفة وعيا وعن قصد.

٣- نزعم أن مصطلح «التحليل الثقافي» مصطلح موسع يتجاوز مستويي «القراءة الجمالية» و«القراءة الثقافية» كما طرحهما د. محمد عبد المطلب، وهو يعد توسيعا لهذين المستويين، ويمثل معهما عملية قرائية موسعة، لا تتوقف في قراءة الثقافي عند حدود الأنساق المضمرة، ولا تحصر قراءة الجمالي في مستويات التحليل اللغوي والبلاغي، وإنما هي عملية تتسع عن الاثنين وتشملهما ليتعاضدا مع مستوى ثالث يكشف عن الأثر الجمالي الذي قامت به الأنساق الثقافية المستحضرة وعيا في النص الأدبي.

٤- النقد الثقافي والتحليل الثقافي ليسا مناهج نقدية نظرية كما هو متعارف عليه من مناهج أخرى كالبنيوية والتفكيكية والأسلوبية والسيميائية

وغيرها، وإنما هي عملية قرائية منهجية ونشاط معرفي يمتاح من كل مناهج النقد الأدبي ما يمكن أن يفيد في قراءة البعد الثقافي في النص الأدبي، سواء كان مضمرا أو ظاهرا.

٥- تمثل مقولات النظرية السيميائية (السيميولوجيا) أفقا طموحا في تحليل النص الأدبي ثقافيا؛ فعلى الرغم من نشأتها اللسانية، فإن امتداداتها وتوسعها عن النسق اللساني المغلق يعني إمكانية استثمارها وتطوير مقولاتها في قراءة النص الأدبي ثقافيا، قراءة تراعي دمج الثقافي ضمن الجمالي، بوصفه النسق المهيمن على كل نص أدبي.

٦- يمثل مصطلح «التأويل» ونظريته إشكالية جديدة مضافة إلى إشكاليات مصطلحات «النقد الثقافي»، و«القراءة الثقافية»، و«التحليل الثقافي»، كما يمثل أفقا من المقولات من الممكن توظيف الملائم منها لطرح منهجية أكثر انضباطا في القضية الإشكالية «التحليل الثقافي للأدب».

قائمة المراجع

1. Marcel Danesi: Visual Rhetoric and Semiotic; Oxford Research Encyclopedia of Communication, Oxford University Press USA, 2016. Online Publication Date: May 2017.

٢. إمبرتو إيكو: **العلامة «تحليل المفهوم وتاريخه»**، ترجمة: سعيد بنكَراد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.

٣. تيو فان لفن: **ثلاثة نماذج لتداخل التخصصات**، ترجمة: سامح كمال، مجلة فصول (مجلة النقد الأدبي)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، المجلد (٢٦/ ٢)، العدد ١٠٢، شتاء ٢٠١٨م.

٤. جيرار جينيت: **مدخل لجامع النص**، ترجمة: عبدالرحمن أيوب، دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥م.

٥. شارلوت سيمور – سيمث: **موسوعة علم الإنسان «المفاهيم والمصطلحات الأنثروبولوجية»**، ترجمة: مجموعة من أساتذة علم الاجتماع بإشراف: محمد الجوهري، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.

٦. شاكر عبد الحميد: **التفضيل الجمالي «دراسة في سيكولوجية التذوق الفني»**، عالم المعرفة (المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، مارس ٢٠٠١م.

٧. فاطمة الطبال بركة: **النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون «دراسة ونصوص»**، المؤسسة الجامعية، بيروت، ١٩٩٣م.

٨. كلود ليفي شتراوس: **اللغة هي الحد الفاصل بين الطبيعة والثقافة**، ضمن كتاب «**الطبيعة والثقافة**»، ترجمة: محمد سبيلا، وعبدالسلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، ١٩٩٦م.

٩. محمد عبد المطلب: **القراءة الثقافية**، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠١٣م.

١٠. محمد عبد المطلب: **المسيرة البينية للنقد الأدبي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٨م.